

﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (عقاب الله للمسلمين في فلسطين)

بسم الله الرحمن الرحيم

لما أصابت المسلمين مصيبةٌ يوم أُحد قالوا: {أَنْتَى مَدَا} [آل عمران: 165] فأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم: {هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} [آل عمران: 165]، وقال الله تعالى لسيّد ولد آدم يوم القيامة صلى الله عليه وسلم: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ} [النساء: 79] ولن يجادل كثير من المسلمين في هذه الحقيقة البيّنة، ولكنهم مع ذلك في معظم وأهم أحوالهم يعدلون بهذه الحقيقة إلى الخيال فيبحثون عن أسباب مصائبهم في نيات وأعمال غيرهم لا في نياتهم وأعمالهم أنفسهم. وإلى القارئ هذه الأمثلة القليلة من كثير:

1- هب المسلمون (علمائهم وعوامهم، ذكورهم وإناثهم، أفرادهم وجماعاتهم) يستنكرون قرار الإدارة العلمانية الفرنسية بمنع المطالبات المسلمات من تغطية رؤوسهن في المدارس الفرنسية كما يمنع المطالب اليهود والنصارى وغيرهم من استعمال الممّيّات الدينية. ولم أسمع صوتاً واحداً استنكر مفارقة الصبايا المسلمات قرار بيوتهن إلى المدارس العلمانية عدة ساعات في اليوم للاختلاط بالمراهقين من كل ملة بلا رقابة شرعية غير رقابة النظام العلماني الذي لا يكر بل قد يُحِبُّ العلاقات الجنسية في حدود لا يقرها شرع الله، بل ولما تقرها تقاليد أكثر العرب في الإسلام ولما في الجاهلية، وفي هذا مخالفة صريحة لحدود الله تعالى للمرأة المسلمة تفوق كشف الرأس: {وقرن في بيوتكن} [الأحزاب: 33].

2- وهب المسلمون جميعاً يستنكرون استيلاء غير المسلمين على المسجد البابري في الهند بعد أن مهّد المسلمون أنفسهم لذلك بترك الصلاة فيه. ولم أسمع أن فرداً من المسلمين (أو مؤسسة من مؤسساتهم) استنكر المصيبة الأكبر: هجر المسلمين هذا المسجد خمس عشرة سنة لا يركع فيه لله ركعة واحدة، وأنهم لا يطالبون بعودته للصلاة فيه بل (لقيمة أثرية) تقليداً للثقافة العلمانية ومجانبةً لشرع الله تعالى في كتابه: {فِي بَيْوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعُ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يَسْبِحُ لَهُ فِيهَا بِالْغَدْوِ وَالْأَصَالِ * رَجُلٌ لَمْ تَلْهِهِمْ تَجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ} [النور: 36-37] وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم "إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن" رواه مسلم.

3- وهب المسلمون جميعاً يستنكرون اعتداء انتحاري يهودي على المصلين في ما يسمى (المسجد أو الحرم الإبراهيمي الشريف) وقتله عدداً من المصلين قليل أن يتمكن بعضهم من قتله، وكان هذا الأمر أهم ما اهتم به خطباء الجمعة، والأئمة في القنوت، والمفكرون الإسلاميون والعلمانيون في وسائل الإعلام المقررة والمسموعة والمرئية بضعة أسابيع.

ولم أسمع أحداً من المسلمين يتساءل: لماذا يُقَدِّم يهودي على قتل المسلمين في هذا المكان ولأجله (وهو يعلم أنه مقتول لا محاله وقد ترك خلفه وصيته واهتداه لأهله)؟ ولم أسمع أحداً منهم يبين أن السبب: التناقص على معصية الله تعالى ومخالفة آخر وصايا النبي صلى الله عليه وسلم لأمرته ألا يتخذوا القبور مساجد، فيما اتفق عليه الشيخان وغيرهما: "لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" قال عائشة رضي الله عنها: "تحذر مثل الذي صنعوا".

فهذا المكان بدأ الشرك بالله فيه منذ اتخذته اليهود مزاراً بدعوى أنه مدفّن إبراهيم وزوجته وإسحق وزوجته، وفي القرن الخامس الهجري بنى فيه المصلبيون كنيسة، فاتبع النصارى اليهود في اتخاذ قبور الأنبياء (بزعمهم) مسجداً، تصديقاً لخبر النبي صلى الله عليه وسلم مما أوحى إليه، وفي القرن السادس الهجري أخذته صلاح الدين الأيوبي فحوّله المسلمون مسجداً وبنوا فيه سبعة أوثان باسم إبراهيم وزوجته وإسحق وزوجته ويعقوب وزوجته ويوسف عليهم السلام (طهرهم الله من الشرك وأهله). وبهذا اقتدى المنتمون إلى الإسلام والسنة باليهود والنصارى في التقرب إلى الله بمعصيته تصديقاً لخبر النبي صلى الله عليه وسلم مما أوحى إليه: "لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه"، قلنا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال "فمن؟" أي: من غيرهم؟ متفق عليه، بل زادوا عليهم ثلاثة أوثان. والحقيقة التي جهلها ولما يحب أن يذكر بها أكثر المنتمين إلى الإسلام أن ما سموه - خطأ - الحرم الإبراهيمي الشريف ليس حرماً ولما إبراهيمياً ولما شريعياً، وهو مثّل مسجداً المضّرّار لم يكن على التقوى من أول يوم، بل على الإثم والابتداع والشرك في عهده اليهودي والنصراني والمشترك بين المسلمين واليهود، ولما تجوز الصلاة فيه فرضاً ولما نفلتاً، وعندما وقفت عليه منذ ثلاثين سنة تقربت إلى الله بعدم الصلاة فيه، إذ لا تجتمع لعنة الله وعبادته في مكان واحد.

وقد حاول بعض أهل السنة الصحيحة إبعاد المسلمين عنه ببناء مسجد على التقوى قريباً منه ولكن الشيطان والنفس الأماراة بالسوء

يزي زان المشرك لصاحبهما ويكره ان الخير.

ومسجد الضرار لم يصل إلى ما وصل إليه مسجد (مدينة الخليل) من محادة الله فلم يُبْن فيه سبعة أوثان ولما بُني على أربعة قبور للمنتمين إلى موسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولكن مجرد فساد نية مؤسسيه جعله أهلاً لتحريم الله على رسوله الصلاة فيه: {لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا} [التوبة: 108]، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه بهدمه مع صلاح نيته ونيتهم بسبب فساد نية المؤسس.

4- وأكثر المسلمين يَعدُّ نكبة فلسطين أكبر مصيبة في حياة المسلمين منذُ أُعلن قيام الدولة اليهودية في فلسطين وأن السبب في حدوثها ينحصر في ظلم اليهود للعرب، وفي وعد بلفور، وفي إمداد كل من أوروبا وأمريكا للدولة اليهودية بالمال والسلاح والعون السياسي ولما شك أن هذا سبب (مادي) ساعد على حدوث النكبة ولكن سبب ثانوي، أما السبب الأول والأهم فيتبين من قول الله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [المشورى: 30].

لما شك أن بلفور وفرنسا وعدد من دول أوروبا ثم أمريكا ساهموا جميعاً في حدوث النكبة أو استمرارها أو تعقيدها، وأن الحركة الصهيونية بسعيها لإنشاء الدولة اليهودية في فلسطين وجلبها اليهود من أوروبا وغيرها ليحكموا الأكثرية من العرب الذين كانوا فلسطينيين قبل أن يسلم أكثرهم، ويصيروا عرباً، بل قبل أن يستوطنها العبرانيون ويظردوا منها (كما يقول ليوبولد فايس اليهودي الن مساوي قبل أن يسلم أكثرهم، ويصيروه كره ويصرفه بعلمه وحكمته وعدله قال وقوله الحق: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظَالِمُ الْبَاطِلَ شَيْئًا وَلَكِنَّ الْبَاطِلَ إِذَا ظَلَمَ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظَالِمُونَ} [يونس: 44]، وقال الله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأنعام: 129]:

– سبقت فلسطين البلاد العربية إلى الثروة والترف ثم إلى الإسراف والفساد، ولذلك نُكبت العرب فيها قبل غيرها، وكما أن الله تعالى {لَا يَحِبُّ إِلَهِمْ} [المائدة: 64] فهو تعالى {لَا يَحِبُّ إِلَهِمْ} [الأنعام: 141] والإسراف مثل الشرك في أنه لا تدعو إليه الغريزة (مثلما تدعو إلى النكاح وطلب المال)، وربما أشار ذلك إلى الحكمة في قول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: 48].

– ولم يكن الشرك غائباً عن فلسطين الأرض المباركة المقدسة التي كتبها الله لبني إسرائيل، ولمرور قبل الإسلام العرب بعده، بل إن أوثان الشرك الأكبر بالمقامات والمزارات والأضرحة والأنصاب تشوه الأرض المباركة حول المسجد الأقصى، وقد ظهر لي من بحث لحصر هذه الأوثان (حصلت عليه من بعض موظفي مديرية الأوقاف الفلسطينية في القدس) أن نصيب المنتمين إلى الإسلام والسنة من هذه الأوثان أكبر من نصيب فرق الضلال في فلسطين مجتمعة. وهذه المعصية هي أول الموبقات وأشنعها: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي كَمَا عَمِلْتُمْ أَتُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} [الأنعام: 151]، "الموبقات سبع: الشرك بالله... متفق عليه، ولما حاجة للمخلوق مطلقاً أن يدعو المخلوق الميت وينسى خالقه الحي الذي لا يموت، والشرك – مهما كان انتماءه – يتقرب بشركه إلى الله فلا يستغفره كما قد يفعل الزاني والسارق وشارب الخمر.

– وكان الإخوة في فلسطين (قادة ومفكرين وشعراء وصحفيين) يُلقون اللوم على بقية العرب لتفرقهم وتثبتت الحدود وإصدار الجوازات لتتميز بعضهم عن بعض، ولكن أول خطوة خطوها في سعيهم لتحرير: مطالبتهم بالاستقلال عن الأردن في بقعة صغيرة لا تتسع لأكثر من دولة.

– وكانوا يدعون أن الحدود بين الدولة العربية رُسِمَت في لندن؛ فَرُسِمَت حدودهم في أوصلو بسعي حثيث منهم.

– وكانوا يلقون اللوم في مصيبتهم على دعوى الفساد المالي والإداري في الدولة العربية؛ فظهرت روائح الفساد المالي والإداري في المس لطة الفلسطينية من أول يوم.

– ومما لا يقبله الشرع ولما العقل أن تمتنع الدولة اليهودية عن إنشاء مؤسسة للقمار وما يتبعه من الموبقات منذ احتلالها فلسطين قبل نصف قرن، ويكون أول مشروع تجاري وسياحي يذكر للس لطة الفلسطينية: مؤسسة للقمار وما يتبعه من الموبقات في أول مدينة فلسطينية (تحررها معاهدة أوصلو).

– ومما لا يقبله الشرع ولما يصدقه العقل أن تتميَّز الأرض المباركة المقدسة على بقية البلاد العربية بل على بقية بلاد الشام بتفشي لعن الرب ولعن الدين، وفي تاريخ النكبة الفلسطينية اتهمت فتاة يهودية بسب النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن لم يتهم يهودي أو يهودية – مجرد تهمة – بسب الرب، فهو امتياز خاص للمنتمين إلى الإسلام والسنة الداهين والمدعو لهم بالنصر، والمدعين بالجهاد والشهادة، ولقد قرأت لأحد كبار الدعاة في المنطقة أن كلمة المشرك في إحدى الليالي لإحدى فصائل الفدائيين كانت (لعن الرب) لأنه لا يُتَوَقَّع أن يقترف ذلك غيرهم هداهم الله جميعاً.

– وبعد هذا ليس من الغريب ألا نسمع من قادة المقاومة والانتفاضة على اختلاف انتماءاتهم كلمة واحدة تحذر المقاومين والمنفضين ومؤيديهم – فضلاً عن مخالفيهم – من الشرك الأكبر بالمقامات والمزارات، أو تدعوهم لإفراد الله بالعبادة، أو تحذّرهم من البدعة أو تدعوهم للترام السنة بل إنهم ليتهمون الدعاة إلى ذلك بالتثبيط عن الجهاد، وإنما الجهاد الحقيقي مرحلة أخيرة من مراحل الدعوة لحمايتها من المصادين عنها (حتى لا تكون فتنة ويكفون الدين لله) [البقرة: 193]، ولههدف أسمى من القومية العربية أو الهوية الفلسطينية: {وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الَّتِي لَا تَمُوتُ} [التوبة: 40]، وهذه أشرطة أسامة بن لادن وأيمن الظواهري، وهذه تصريحات أحمد

ياسين والرنّيسي لا يوجد فيها ما يخرق القاعدة الفاسدة: الانشغال والإشغال بالمهم عن الأهم وبالمنافلة عن المريضة وبالمكروه عن الحرام.
هدى الله الجميع لأقرب من هذا رشداً وتجاوز عمّن مات لا يشرك به شيئاً.

كتبه/ سعد بن عبد الرحمن الحصين عفا الله عنه تعاوناً على البر والتقوى وتحذيراً من الإثم والعدوان. □ المرياض - ذو القعدة 1425هـ.